الصيام في الإسلام

الأخ عبد القادر العافية

الصيام ضبط للنفس ، وتمرين على تقوية الإرادة ، وعلى التحكم في الأهواء والشهوات ، لأن الإنـــسان بـــدون ضبط نوازع هواه ، وبدون إرادة قوية لا يمكنه أن يحقق سعادته فوق هذه الأرض . فالصيام طريق لتحقيـــق ضـــبط النفس وتقوية الإرادة والسمو بالنفس .. وإذا كان الصيام بهذه المثابة فهو يحتاج إلى صبر لأنه تمرين روحي على مـــا تسمو به النفس الإنسانية ، وهو اختبار لمدى قوة التحمل والإصرار والصمود في الإنسان ..

لأن الإنسان الذي تتحكم فيه أهواؤه وشهواته هو عامل من عوامل الهدم وليس عاملاً من عوامل البناء والتشييد

فالله الذي فرض الصوم على عباده جعل من حكمة هذا الصوم ما يترتب عليه من سمو روحي

قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : 183]

فهذا النص الرباني بعد ما فرض على المؤمنين الصيام علل هذه الفريضة بقوله تعالى : ﴿ **لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ** ﴾

ومن المعلوم أن التقوى في الإسلام هي مجمع الفضائل كلها لأن التقوى هي امتثال الأوامر واجتناب النواهي والتخلق بالأخلاق الحميدة التي يرضاها الله لعباده .

ولذلك مدح الله تعالى المتقين في كثير من آيات كتابه الكريم ، قال سبحانه : ﴿ ... **وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [البقرة : 194] وفي آية أخرى ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ** ﴾ [الطور : 17] وفي آية ثالثة ﴿ ... **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ** ﴾ [التوبة : 4] ..

ثم إنّ الله تعالى جعل التقوى مفتاحاً لكثير من الخيرات والأرزاق قال تعالى : ﴿ ... **وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۞ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ** ﴾ [الطلاق : 2-3]

وقال تعالى :
﴿ ... **وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ** ... ﴾ [البقرة : 282]

بل إنّ القرآن كله جاء من أجل الوصول إلى تحقيق التقوى .. قال تعالى : ﴿ ... **كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِـــهِ لِلنَّـــاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ** ﴾ [البقرة : 187] ..

فالتقوى التي جعلها الله منوطة بالصيام هي غايةٌ يسعى المسلم ليتصف بها . والصيام هو باب من أبوابها وطريـــق من الطرق الموصلة إليها . لأن الصيام الذي يصحبه إيمان بالله واحتساب لأمره يعوّد الإنسان المسلم على الصفات التي تزكو بها النفس الإنسانية ، والتي تصل بها إلى درجة من التقوى ..

وإذا كانت التقوى تتضمن خصال الخير جميعها فلا شك أنه بها يصبح الإنسان عضواً نافعاً في مجتمعـــه ومـــزوداً بالضمير الحي والسلوك القويم

ولما كان الصيام طريقاً للوصول إلى التقوى خصّه الله ﷻ بقيمة عظيمة حيث جعله ركناً من أركان الإســـلام . وجعله فرضاً على المسلمين جميعا . وجعل زمانه هو شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن الكريم كل ذلـــك تعظيمـــاً لشأن الصيام

ومن حكم الله تعالى في الصيام أن جعل له شهراً قمرياً يتنقل مع أيام السنة حتى يكون التمرين الروحـــي الـــذي يهدف إليه الصيام يتناول الفصول الأربعة ولا يقف عند موسم معين وبذلك فالمسلم يصوم الأيام الطويلة والقـــصيرة والحارة والباردة والمعتدلة . وهو بذلك يتعود على الصوم في مختلف الأحوال والظروف . ومعنى ذلـــك أن المـــسلم يتمرن تمريناً روحياً يؤهله للحصول على صفة التقوى .

ولتكون عبادة الصيام في مستواها اللائق بها كان لزاماً على المسلم أن يتخلق بالأخلاق الحميدة أثناء ممارسته لهذه العبادة فالصوم ليس من الجوع والعطش فقط بل لا يكون الصوم صوماً مقبولاً عند الله إلاّ إذا كان مصحوباً بصفات تجعل الصائم ينتفع بصومه ولذلك قال ﷺ : « **إِذَا كَانَ يَوْمُ صَوْمِ أَحَدِكُمْ فَلاَ يَرْفُثْ يَوْمَئِذٍ وَلاَ يَصْخَبْ ، فَإِنْ سَابَّهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ أَحَدٌ فَلْيَقُلْ إِنِّي امْرُؤٌ صَائِمٌ** » رواه أحمد

لأن المسلم أثناء صومه يكون في عبادة ربانية لا تليق بها سفاسف الأمور ، ولا أن يقترف صاحبها ما يبعدها عن الغاية منها .

بل على المسلم أن يقدّر هذه العبادة التي يمارسها وأن يعطيها مكانتها : فلا يـــنحط إلى الإســـفاف في القـــول والصخب والجدل والمشادة لأن مثل هذه الأمور تُخرج الصائم عن سمو العبادة التي هو فيها

ولذلك كان على الصائم أن يقوم بأعمال تناسب العبادة التي هو فيها ، كتلاوة القرآن الكـــريم ، ومدارســـته ، وتعلم العلم ، والاستماع إلى كل ما من شأنه أن يهذب النفس ويسمو بالإنسان .

فعبادة الصيام لا يليق بها أن تدنس بالقول الفاحش ولا بالنظر إلى المحرمات ، ولا بتضييع الوقت في اللعب واللهو وكثرة النوم ..

بل الذي ينسجم مع طبيعة هذه العبادة هو تهذيب النفس والارتفاع بها عن الدنايا : والتحلي بالتسامح والمحبـــة ، والإسراع إلى البذل والكرم ، والسعي لقضاء مصالح الناس ..

وبذلك كان شهر الصيام هو موسم الخير والبركة وتعلم العلم ، ومدارسة القرآن والإقبـــال علـــى الله بالـــدعاء وبأعمال الخير ..

أما الذي يخرج بصيامه وبموسم صيامه عن هذا المعنى فيصدق عليه الحديث الشريف : « **رُبَّ صَائِمٍ لَيْسَ لَهُ مِنْ صِيَامِهِ إِلاَّ الْجُوع** » رواه ابن ماجه

ومن المؤسف أن كثيراً من الصائمين يتهاون في إعطاء الحرمة والمكانة لموسم الصيام الذي هـــو شـــهر رمـــضان الكريم .

وبعدم إعطاء المكانة والحرمة لشهر الصيام يكثر الخصام وتتوتر الأعصاب وتُتبادل الشتائم وبذلك يـــسوء منظـــر الصائم ومخبره ..

مع أن كل ذلك منافٍ لطبيعة الصيام ومناف للغاية منه ، ولأن المسلم ما أقدم على هذه العبادة إلاّ بعد أن نـــوى الصيام لله تعالى

ومعنى كونه نوى أي أنه استحضر القصد من هذه العبادة التي أقدم عليها (لأنه لا صيام بدون نية)

فالذي عقد العزم على الصيام ونواه عليه أن يدرك أنه دخل في عبادة ليمارسها بشروطها وآدابها .

آما إن هو أخلّ بالشروط والآداب فإنه يكون غير ملتزم بما نوى وهنا يكون متناقضاً مع نفسه لأنـــه في الوقـــت الذي نوى الصيام يعمل أعمالاً منافية للصيام

ولعل هذا هو السر في كون الشارع حثَّ على استحضار النية عند بداية كل عبادة

فالصيام الذي هو عبادة تهدف إلى السمو بالإنسان وإلى تربية روحه وتقوية إرادته وتعويده على الصبر وعلى فعل الخير لا يليق بالصائم المسلم أن يجرده من معناه بل عليه أن يفتح قلبه وعقله على مختلف أصناف الخير :

كرم وإحسان ، وتلاوة قرآن ، وصبر واطمئنان وصيام نهار وقيام ليل ، وبذلك يكون الصائم ممتثلاً لأوامـــر الله ومسترشداً بهدي رسوله ﷺ . ومتوخياً لنتائج صيامه في الدنيا والآخرة